پول بورچيه

كان بورچيه بين الكتاب المعاصرين أحد أولئك النفر القليلين الذين يحكم حياتهم الأدبية المديدة قد عاصروا الجيل الحاضر والجيل الذى قبله . ذلك أن بورچيه الذى ولد عام ١٨٥٢ قد أخرج للناس أول كتاب له وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، فتاريخ الأدب قد ذكر اسمه بين كتاب القرن التاسع عشر الذى قضى فيه مايقرب عن خمسين عاماً من حياته قبل أن يذكره المؤرخون الحديثون فى عداد الكتاب المعاصرين . وكما كان بورچيه بحكم شيخوخته الأدبية ليس أديباً معاصراً فقط ، كذلك كان بحكم تفكيره مفكراً لايعيش فى العصر الذى نعيش فيه فقد ظل بورچيه حتى موته عام ١٩٣٦ يحيا بأفكاره فى شبه عزلة ، يستمد لها الوحى والإلهام من كتب القرون الغابرة . ظل حتى يومه يؤمن بالملكية المطلقة وسلطة رجال الدين ويدعو إلى العودة إليهما فى شعب جرت مبادىء الديموقراطية فى دمه وروحه من هاتين الناحيتين يختلف پول بورچيه عن ذلك العدد الزاخر من الكتاب المعاصرين الذين ترعرعوا فى ظلال العصر الجديد ، فمنهم من احتفظ فى آدابه بفكرة (الفن للفن) وبقى بعيداً عن محيط الحياة الصاخب ،

ومنهم ـ وهم الغالبية ـ من أبت شدة إحساسه وقوة شخصيته أن يعيش إلى النهاية على هامش الحياة فنزل إلى معتركها ، ولما زلزلت آذانه صرخات الصرعى وأوجاع المتألمين فى مجتمع يعج بالنقائص تردد الصدى فى فنه الخالد، وإذا القلم بين يديه كالمعول يهدم به الطالح ويبنى الصالح .

على أن بورچيه كان يتفق والكتاب المعاصرين من حيث محاولة إقامة فنه القصصى على أساس علمى . فقصصه جميعاً تدور حول تحليل العواطف الإنسانية المتضاربة وغرائزها الأولى وخصوصاً الغريزة الجنسية ، وهو فى فنه دقيق الملاحظة عظيم القدرة على التعمق فى خفايا النفس ، ولعل هذا هو السبب فى أن القارىء الذى لم يرزق طول الأناة والصبر على قراءة القصص التحليلية لا يلبث أن يشعر بالملل والسأم عند قراءته ، إذ أن كل إنتاج بورچيه القصصى ، رغم غزارته ، ماهو إلا وصف وتحليل حالات متنوعة من النفس البشرية .

ولقد بدت ظاهرة التحليل النفسى الطاغية على فن بورچيه فى أول أعماله الأدبية حين بدأ حياته الكتابية بنشر مجموعة شعرية سماها (على شاطىء البحر) Au bord de la mer (١٨٧٣) ثم أتبعها بأخرى عنوانها (الحياة القلقة) La vie inquiète (١٨٧٤) . فى كلتا هاتين المجموعتين وما تبعهما حاول بورچيه

أن يظهر ماوراء ذلك الطلاء الاجتماعى الذى يستر طبيعتنا الأولى من نزعات جياشة ورغبات لاتخمد، فأصاب فى محاولته نصيباوافرا من التوفيق . على أن الشعر وما فيه من تكلف وتقييد لم يكن يتفق وأديبا من نوع بورچيه ، يسعى لتمزيق الحجب التى كستها المدنية الشخصية الإنسانية ، يحاول أن يتغلغل إلى ماوراء الصدور ، يكشف النيات والإحساسات الغامضة الملتوية ، ثم يعمد إلى تحليلها والوقوف على مبعث وجودها . إن هذه الموهبة لهى أكثر صلة بطبيعة « الناقد » ومهمة « القصصى » . لذا سار پول بورچيه فى هذين الاتجاهين وبلغ فيهما شأوا عظيما .

ففيما يتعلق بالناحية النقدية من فنه فقد بدأها بورچيه بكتابة دراسات عن كتّاب القرن التاسع عشر، وهو القرن الذى عاش فيه النصف الثانى بأكمله ، وكان من بين هؤلاء الكتاب بودلير وستندال وتين . ولاتزال هذه الدراسات حجة ومرجعا فى تحليل من كتب عنهم . أما فيما يتعلق بفن بورچيه القصصى فقد بدأه بعد زيارته لانجلترا عام ١٨٨٤ بقصة (الذى لايصلح) L'irréparable (١٨٨٤) وهى أولى قصصه القصيرة التى كتب منها العدد الوافر . أما قصصه الطويلة فقد بدأها بقصة (لغز قاس) Cruelle énigme (١٨٨٥) وتلتها (جريمة حب) Un crime d'amour (١٨٨٦) ثم (أندريه كورنليس) André Cornélis (١٨٨٧) ثم (أوهام) Mensonges (١٨٨٧)

لم يكن بورچيه إلى ذلك الوقت قد بلغ بعد الشهرة التى أعدها له القدر حتى ظهرت قصته (التابع) Le disciple (١٨٨٩) ثم تلتها (المرحلة) L'étape (١٩٠٢) ثم (طلاق) Un divorce (١٩٠٤)، وعندئذ ذاع اسمه ذيوعاً كبيراً وكثر تحدث الأندية الأدبية والنقاد عنه. ولقد كان الباعث على ذلك أمران: الأول عمق التحليل الذى أثبت نبوغ بورچيه ككاتب نفسى إلى جانب براعته كقصاص، والثانى أن فى هذه القصص الثلاث أوضح بورچيه آراءه الاجتماعية والسياسية بصراحة لا لبس فيها ولا مواربة، بعد أن كانت تجول فى صدره — دون أن تجلى تماماً — مدى عشرين عاماً.

• • •

ومما لاشك فيه أن الآراء الاجتماعية والسياسية التى يؤمن بها مفكر من المفكرين إنما هى وحى نفسيته الخاصة وظروف البيئة ونوع الثقافة ودرجة الذكاء. ويظهر أن كل هـــذه العوامل قد تضافرت لكى تخرج لنا من پول بورچيه مفكراً رجعى النزعة. ولقد بدت هذه الرجعية منذ أوائل أعماله، إذ كان فنه قاصراً على رسم الطبقة الأرستقراطية والاعتزاز بها والدفاع عنها. وقد يكون السبب الذى منعه من أن يدعو لأفكاره جهاراً فى أدبه هو فهمه لطبيعة شعبه الفرنسى الذى يقدس مبادىء الحرية والمساواة. على أن هناك سبباً آخر كان يحول بينه وبين تسخير فنه لبث تفكيره

السياسى والاجتماعى. ذلك أنه كان هناك مايشبه التقليد بين الكتاب الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر — باستثناء أقلية تقدمية معدودة مثل فكتور هيجو — وهو أن يكونوا فى فنهم بعيدين عن التأثر بالمشكلات الاجتماعية والسياسية، فكان لكل منهم رأيه الخاص من دون أن يكون لذلك الرأى أثر ظاهر فى أدبه الذى بقى فنا خالصا. بيد أنه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدثت فى فرنسا حوادث سياسية مخزية كفضيحة بناما وقضية دريفوس زعزعت عند عدد من الكتاب الفرنسيين الثقة فى النظام الجمهورى وجعلت مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى التى هى أساس هذا النظام موضعا للمناقشة والتفنيد، إلا أن الغالبية العظمى من الكتاب بقيت مؤمنة بقيمة النظام الجمهورى وفائدته، مرددة أن ماحدث ماهو إلا طوارىء عارضة وأن إصلاحها يسير، ولا يمكن مطلقا أن تكون سببا فى قلب نظام قام على تضحيات عشرات الألوف من الفرنسيين. ولقد كان الكتاب الساخطون على النظام الجمهورى فى أثر الفضائح السياسية فريقين متناقضين، كل منهما يطلب نظاما اجتماعيا يختلف كل الاختلاف عن النظام الذى يطلبه الفريق الآخر ويرى فيه الصلاح والقضاء على الفوضى القائمة. فالفريق الأول كان يرى فى النظام الاشتراكى خير ضمان من عبث العابثين وكان زعماء هذا الفريق أناتول فرانس وجان جوريس ورومان

رولان . أما الفريق الثانى فكان يطلب رجعية تعود بفرنسا إلى ماقبل الثورة الكبرى أى إلى حكم الملوك المطلقين ورجال الدين، وزعماء هذا الفريق پول بورچيه وموريس باريس وشارل موارس. ومنذ ذلك الوقت جعل كل من الفريقين فنه ميدانا للدعوة لعقيدته فخرج أدبهم من أن يكون فنا للفن إلى معالجة مشكلات المجتمع ومحاولة إصلاحه بالطريقة التى يراها كل فريق منهما .

ولقد كان هذا الذى حدث نقطة تحول هامة فى طابع الآداب الفرنسية فيما بعد . ولقد ساعدت نكبة الحرب العالمية الأولى وماسببته من أزمات اقتصادية لانهاية لها وبؤس جاثم على صدور البشر على ازدياد أنصار الفريق الأول — فريق فرانس وجوريس ورولان — ازدياداً عظيما نلمسه الآن فى أعمال أعاظم الكتاب الفرنسيين من شيب وشبان ، بينما وقف الفريق الثانى وعلى رأسه بورچيه عند نقطة ابتدائه ، لم ينله أقل تطور ، بل ازداد ضعفاً بابتعاد الحوادث التى سببت هذه الرجعية وعلى ضوء الحقائق الملموسة .

* * *

فى كل من القصص الثلاث (التابع) و (المرحلة) و (طلاق) نرى بورچيه يتمسك بأمرين يدعو لها ويعدد مايراه فيهما من فضائل ، الأمر الأول نظام الحكم الملكى القديم والأمر الثانى

التقاليد الدينية قبل أن يدخلها الإصلاح والتطور . فبينما نراه فى قصة (التابع) يوغل فى امتداح الطبقات الأرستقراطية ويعتبر التصويت العام خطراً قومياً ، نراه أيضا فى قصة (المرحلة) يحاول أن يثبت أن هناك حدودا لايجب أن تتعداها الطبقات الفقيرة، وأن (المرحلة) التى تفصل بين هذه الطبقات والطبقات الأرستقراطية بعيدة الشقة يكاد لايمكن عبورها !

ولقد جعل بوجيه بطل قصة (المرحلة) — ويدعى فيكتور فيران — أحد أساتذة الجامعة المشهورين فى فهم الفلسفة الكاثوليكية، وهو حين يصفه لنا يقول (أنه ليس تقليدياً فى الدين فحسب بل فى السياسة أيضاً ، وهو لايتكلم عن الثورة إلا ليذكر العقائد الجامدة الفاسدة فى ثورة ١٧٨٩) فاذا سمعنا الأستاذ فيران نفسه يتكلم رأيناه يعلن أن (جميع القوانين التى نعيش فى ظلها منذ مائة عام ـ أى منذ الثورة الكبرى ـ هى قوانين الغرور والكبرياء) ثم حين يقف فيران فى صف أعداء دريفوس ـ وهم كما نعرف قليلون بالقياس إلى أنصاره ـ لايتردد پول بورچيه فى أن ينسب ذلك إلى (عبقريته الوضاءة الرزينة) ويدعم ذلك بتأييد آرائه فيقول (إن فرنسا تغرق نفسها فى نظام برلمانى عظيم التطرف ، نظام يقوده أفراد انتخبوا بواسطة التصويت العام وبعبارة أخرى

تقوده أغلبية من المشعوذين أرسلتهم أغلبية من الجهلاء) .

وفى قصة (طلاق) نرى بورچيه يقف فكرتها على الدعوة للكنيسة الكاثوليكية . وفيها يعتبر أن الطلاق مهما كان سببه جالب للكوارث والنكبات .

من ذلك نرى أن فن بورچيه تقليدى محض ، ينكر كل تطور فى السياسة والدين أنتجته الأفكار الديموقراطية الحديثة . والحق أن طغيان هذه النزعة الرجعية الجامدة على فنه منذ ظهور قصة (التابع) قد أساء إليه إساءة ليست يسيرة، إذ عزل اسمه من صفوف الطليعة بين رجال الفن القصصى المحدثين الواعين الذين ساروا فى ركب التطور وكانوا عونا محسوسا فى السير بالمجتمع الإنسانى نحو النور والتقدم .

لقد كان بورچيه أديبا ومفكرا ، ولكننا بموته لم نفقد فيه ذلك المفكر الممتاز الذى كانت تعقد عليه وعلى نظرائه الآمال لأنه يمثل روح العصر كما كانت الحال مع معاصره أناتول فرانس مثلا . ذلك أن الأفكار التى كانت تطبع أدب پول بورچيه لاتمت إلى الفلسفة الاجتماعية الجديدة بصلة، وهى لذلك لم تكن هزيلة فى فرنسا فحسب بل فى العالم المتمدن أجمع . والإنسانية التى تسير كل يوم إلى الأمام خطوة جديدة ليست فى حاجة إلى الأفكار التى

تعود بها إلى الوراء قرونا . . . إنما الذى فقدناه حقا بموت بورچيه، هو بورچيه الأديب . ولولا أن تفكيره كان يطغى عليه كناقد وكقصصى لاعتبر بدقة وصفه وعمق تحليله من أعظم أدباء فرنسا فى عصرنا هذا بلا نزاع .